محاضرة القاها

في نادي الشبيبة الكاثوليكية

الخوري بطرس غالب

٣

لننتقلنّ الآن الى عصرنا ، ونتفرّس في وجه الحبيس الذي يخيّل الينا انه من بقايا القرن السادس عشر ، وكأنما هو قرنٌ لملكا البقرفاوي الذي بلغ من الزهد والتقشف مبلغاً نكاد لا نصدّقه لغرابته .

هذا الحبيس العصري هو شربل مخلوف المتوفى برائحة القداسة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٨٩٨ ، بعد ان سار سيرة عجيبة . وكأني به قد جُعل في قربنا ليشهد لنا بان اسلافه من الحبساء قد سلكوا حقًا هذه الطريق الكاملة ومارسوا كل ما فيها من ضروب الزهادة والنسك .

وقد رأى الاب دوبرنفيل ، رئيس كلية القديس يوسف ، جسد هذا الحبيس في دير القديس مارون بعنايا في اعالي جبيل . ذلك الجسد لم يفسد وهو شبيه بالمومياء ، لكنه منذ ثلاثين سنة اي من سنة وفاته الى اليوم ، يبعث رائحة قوية غير متعفنة لا تلبث ان تصير لذيذة . وعند قبره وبشفاعته يصنع الله كرامات غير اعتيادية .

وُلد شربل في بقاع كفره وهي في لبنان الشمالي ، بالقرب من الديمان على ارتفاع ١٤٥٠ متراً من البحر ، فهي اعلى قرية في لبنان . وسُمي يوسف .

وكان ابوه يرسله لحراسة البقر والمعزى في المرعى . فيتوسّل يوسف الى احد رفاقه ان يسهر على قطيعه الصغير . اما هو فكان ينفرد بعيد رمية حجر ويجثو على الارض مصلياً . وكان بالقرب من المرعى مغارة فاختارها ليمارس

فيها رياضاته الروحية . اما رفاقه فكانوا يهزأون به لاجل تطرفه في العبادة ويمدّونه ابله لانه كان يأبى ان يلعب معهم . وهذه حال الناس في كل عصر . هي الحكمة البشرية اوحت الى هؤلاء الرعاة ان يحكموا حكماً فصلاً في طرق الرب .

ذلك الكهف الصغير دعي اولاً مغارة الابله ثم ما لبث ان صار معروفاً بمغارة القديس . اما يوسف فلم يبالِ بما يقال عنه بل ظل سالكاً في سبيل عبادته . فلمّا بلغ سن الثامنة عشرة سمع صوت الرب يدعوه الى سيرة الكمال والتضحية . وكان على تمام التأهب فلبى الدعوة غير متردّد ، ولم يثبط عزمه ممانعة ابويه ولا توسلات اصدقائه . ذلك الابله اعرب عن سخاء نفس عظيم ، وكان انه وضع يده على المحراث فلم يلتفت الى الوراء . هجر اهله ولم يشأ ان يراهم فيما بعد .

ثم لمّا انتشر طيب فضائله وبعدت شهرة قداسته ، اتت اخته من بقاع كفره الى دير مار مارون عنايا لتراه مجتازة مسافة ١٢ ساعة في الاقل ، فابى ان يواجهها حتى امره رفيقه الحبيس مكاريوس بان يقابلها ويعزّيها بيسير من الكلام . فعند ذلك وقف شربل في آخر ممشى المحبسة واسمعها بعض كلمات من وراء ستار كثيف .

وفي مدة ابتدائه كان مثالاً في التقوى لكل من يراه ، واستبدل اسم يوسف باسم شربل حتى لا يبقى على شيء من تذكارات العالم الذي مات عنه موتاً كاملاً . وجعل يبالغ في رعاية القانون الرهباني يحفظه بكل دقة . وقيّض له الله معلماً يدرسه اللاهوت الادبي ، راهباً قديساً يعرف اليوم باسم « قديس كفيفان » وهو نعمة الله الجرديني رجل الله الشهير . وقد صار التحقيق الاولي القانوني عن سيرة هذين الراهبين عبدي الله ورفعت اوراق تطويبهما الى رومية . فكان ان مثل ذلك المعلم القديس أكمل تهذيب شربل الروحي وتثقيفه فأجمع الرأي على انه اهل للكهنوت .

سيم كاهناً فاراه تواضعه انه غير اهل لتلك النعمة المفاضة عليه ولا للقيام بمهام الكهنوت الكثيرة ، فسأل رؤساءه ان يرخصوا له بالانقطاع الى الصلاة

والتقشف في احدى المحابس ليعاون بممارستهما الكهنة المنصرفين الى خدمة النفوس. ومكث زماناً طويلاً لا يُؤذن له بما يشتهيه من الانفراد . كأن الله سبحانه شاء ان يمتحن طاعته ريثما يستكمل الفضائل التي تقتضيها الحياة الرهبانية العمومية . فلمّا رأى تمام نضجه اعلن رضاه عن مطلبه وعضده بعلامة عجيبة.

كان شربل مع اخوته وبعض العملة في حقل للدير يعزقونه فأُمِر ان يجمع الحصى وينضدها على الحيطان ، ويركش الارض ، ويساعد الحصّادين بربط الحزم ، ويقتلع الشوك ، وينقل التراب في سلّ ، ويحمل ماء الشرب الى العملة. فكان يتم دون تمرمر جميع ما يسومه عمله الاخ المولّى ادارة اشغال الحقل (رئيس الحقلة). وحين يجلس العملة لاخذ الراحة كان شربل يبتعد عنهم قليلاً ويأخذ في الصلاة . امّا الاخوة والعملة فكانوا احياناً يفتحون له سبيلاً واسعاً الى ممارسة الصبر. من ذلك انه حدث انهم ذات يوم حملوه كل ادوات العمل من معاول ومجارف ورفوش ومناجل وجرار ليحملها الى الدير . فلمّا صارت على ظهره قال لهم مبتسماً: شغلتم ظهري ولم تشغلوا يديّ فهاهما لا تزالان فارغتين ، افلا ترون ان هذا الحمار (عنى جسده) يستطيع ان يحمل اكثر من ذلك !

وفي ذلك اليوم وصل الى الدير متأخرًا ، لان جسده الذي اضناه التقشف والشغل والسهر لم يأذن له بالاسراع كاخوته . فلم يبلغ الى الدير الا في ساعة العشاء . وكان الرهبان يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المساء اي زهاء الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر.

ولم يكن بعد قد وفى فرض الصلاة فاقبل على الاخ الكلارجي يطلب زيتاً لسراجه ، فلقيه الكلارجي بدمدمة وتذمر وحول له ظهره.

غير ان الخادم اراد ان يمازحه فاخذ منه السراج وملأه ماء ، وشربل لا يراه ، وقال : خذ سراجك يا ابانا شربل فقد صببت فيه زيتاً...

صدّقه شربل ، وذهب بسراجه الى قلّايته ليصلي فرضه . أشعل السراج فاشتعل . الا ان الخادم أخذ بحيلته . وذلك ان رئيس الدير بينا كان يطوف الهوينى على عادته متفقدًا القلالي بعد اطفاء المصابيح وكان الخادم وراءه ابصر نورًا في قلاية شربل . فبكّت الخادم ضميره وخاف ان يلوم الرئيس شربل

فاوقف الرئيس على ما فعل . ومع ذلك دخل الرئيس غرفة شربل واخذ السراج وصبّ ما فيه على الارض ليعلم ما اذا كان فيه ماء واذا كانت رواية الخادم صادقة ، فاذا هي كذلك . وفي الغد استدعى الرئيس شربل وقال له : ان الربّ يشاء ان تكون حبيساً . فلا املك مقاومة مشيئته بعد ما أُعلنت على هذا الوجه الصريح . فوقعت هذه البشرى من قلب شربل وقع الماء الزلال على صدر ظمآن . فتوجه لساعته الى المحبسة وسجد امام الرب ، الذي هو ايضاً حبيس في معبد المحبسة ، وادّى الشكر من صميم الفؤاد . لانه فاز بما كان يشتهيه ، اي العيش بالقرب من السجين الالهي وحرية تقريب نفسه ذبيحة يومية طول ايام حياته لذلك الذي جعل نفسه ضحية لافتدائنا .

للحبساء قانون يجب عليهم ان يتقيدوا به . سنهُ لهم التقي الورع عبدالله قرالي مطران بيروت ، احد مؤسسي الرهبانية اللبنانية المنسوبة الى القديس انطونيوس الكبير . واهم مواد ذلك القانون ان الحبيس منذ يؤذن له بدخول المحبسة يجب عليه الطاعة لرئيس الدير المختصة به المحبسة ، يكون له رفيقٌ او رفيقان يقومان معه بالخدم الضرورية . ولا يحقّ للحبيس ان يلبس سوى الثوب الرهباني وهو من صوف غليظ تحته ثياب من خام خشن جدًا قاتم اللون .

ساعات نهاره مقسمة على الصلاة والدرس والعمل اليدوي ، والصمت فريضة عليه لا تنقض الا في احوال الضرورة ولداعي المحبة والرحمة . ولا يجوز له الاكل الا مرة في كل اربع وعشرين ساعة ، وهذه الاكلة الواحدة تؤخذ من فضلات مائدة الدير مخلوطة بعضها ببعض ومزيدًا عليها قليلٌ من الخل والملح . واحياناً يقتصر الحبساء على (سلطة) مصنوعة من حبوب مسلوقة ومن ورق وسوق النبات . وكان لشربل رغبة خاصة في السلطة المصنوعة من الفرفحين بدون زيت .

ومن قوانينهم ان لا يقبلوا الزائرين الا خارج القلاية وليس لهم ان يحدثوا النساء الا عند الحاجة من وراء شبرية عليها ستار كثيف . وبعد تحية الزائر بما يقتضيه ادب الزيارة يجب ان يدور حديثهم على ما يفيد السامع روحيًا .

(للبحث صلة)